المكانة العلمية للمرأة

في أرض الحرمين الشريفين في زمن المماليك

د. أحمد محمد عدوان
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الملك سعود

من المعروف أن الإسلام انتشل المرأة من الهوة التي دفعتها الجاهلية إليها، ووضعها في المكانة الكريمة اللائقة بها، فقد ظهر وأهل الجاهلية يكرهون الأنثى ويبغضونها، قال تعالى : ﴿وإذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾(١)، ويهينونها، ويدفنونها وهي حية، فحرَّم الإسلام ذلك، وأمر برفع شأنها، قال تعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾(٢)، وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾(٣)، وكانوا لا يورثونها، فأعطاها حقها في الميراث ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾(٤)، وكانوا يرثونها كَرْهًا، فحرَّم ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ (٥). وكان الرجل منهم يمنع مطلقته من الزواج حتى ترد عليه جميع ما أنفق عليها، ويمنع الأب ابنته والأخ أخته من الزواج إن شاء، وكان

---

(١) سورة النحل، آية (٥٨).

(٢) سورة التكوير، آية (٨- ٩).

(٣) سورة الإسراء، آية (٣١).

(٤) سورة النساء، آية (٧).

(٥) سورة النساء، آية (١٩).

الرجل يسيء عشرة امرأته، فلا يطلقها إلا بفدية، فحرم الإسلام ذلك ﴿ **وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ** ﴾(٦). وقد دعت الشريعة الغراء إلى معاملة الزوجة بالمعروف ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾(٧).

هكذا أمر الإسلام بتكريم المرأة، حتى أصبحت تُستفتى في أمور الدين، فتحدثت فيما تعتقد أنه الصواب، وشاركت في تحمل مسؤوليات المجتمع عالمة ومتعلمة، ومكافحة في طلب الشهادة، وقد ظل هذا ديدن المرأة المسلمة في كل زمان ومكان، تشارك في نشاطات مجتمعها المختلفة، وتدافع عنه بطريقتها وأسلوبها الخاص في جميع الأزمنة والأمكنة. وفي مدة دراستنا ومكانها المحدد كان النشاط العلمي للمرأة هو الأكثر وضوحًا من بين نشاطاتها المختلفة؛ إذ تبوأت مرتبة عالية في هذا المضمار بشهادة عدد كبير من مصادرنا الإسلامية المعاصرة لتلك المدة، وخير دليل على ما ذهبنا إليه تلك الألقاب التشريفية التي أطلقت على كثير من نساء العصر، ومنها لقب الواعظة، الشيخة، العالمة، الفقيهة، الصالحة، المباركة، الأصيلة، المحدثة، المسندة، الخيرة، الفاضلة (٨).

---

(٦) سورة النساء، آية (١٩).

(٧) سورة النساء، آية (١٩).

(٨) الفاسي، محمد بن أحمد بن الحسن. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١٤٠٦هـ. (٢٠٢/٨، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٧٠).

السخاوي، محمد بن عبدالرحمن. الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، ط١٣٥٥هـ، (٧/١٢، ٨، ٨٨).

كحالة، عمر رضا. أخبار النساء في عالمي العرب والإسلام، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م، (٢٠٦/٤).

ابن العماد. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة التراث، دار الآفاق الجديدة، بيروت، دون تاريخ، (١٠٥/٦، ٢٨٠).

مراكز تعليم المرأة ومصادره :

من خلال تتبعنا للمصادر الإسلامية المعاصرة نلحظ أنها لم تشر إلى وجود مدارس أو كتاتيب خاصة لتعليم الفتيات، الأمر الذي يفيد أن تعليمهنَّ لم يكن عامًا أو يلقى قبولاً واسعًا في المجتمع، خاصة أن بعض الفقهاء نظروا إلى تعليم الفتاة نظرة ترددٍ وحذر، بل شبَّه بعضهم تعليمها بالحية تُسقى سما (٩)، ونظر آخرون إلى أن تعليم الفتاة قد يزيدها شرا (١٠)، لكنهم لم يروا غضاضة في تعليمها بعض الشعر، والكلام الذي لا فحش فيه (١١) إلى جانب ما يلزمها من أمور دينها.

وعلى الرغم من هذه المحاذير والتخوفات، فإن المرأة نالت قسطًا من التعليم الديني؛ لأن تكاليف العبادات مطلوبة منها مثل الرجل مع بعض الفوارق كأن تعلمها امرأة(١٢)، أو أحد والديها(١٣)، أو قريباتها، ولا يسمح لها بالاختلاط بالأولاد(١٤)، وعلى كل حال فإن الأماكن التي تلقَّت فيها المرأة تعليمها أشارت إليها المصادر في مواضع مختلفة.

---

(٩) الشيرازي، عبدالرحمن بن نصر. نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٤، القاهرة، ١٩٤٦م.

ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي. معالم القرية في أحكام الحسبة، ص١٧١، القاهرة، ١٩٧٦م.

(١٠) ابن بسام، محمد بن أحمد. نهاية الرتبة

(١١) المصدر نفسه، ص١٦٣.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) السخاوي : الضوء ١٢/٤٥، ١٠٦، ١٤٠، ١٤٣.

(١٤) ابن سحنون، (عبدالله) : آداب المعلمين... ملحق في كتاب "التربية في الإسلام" أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥م، ص٣١٦.

القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين، ص٢٧١، ملحق في كتاب " التربية في الإسلام " أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، ١٩٧٥م.

يأتي في مقدمتها المنازل؛ إذ كانت الفتاة تتعلم مبادئ القراءة والكتابة في منزلها، والذي يقوم بهذه المهمة الأمهات أو الآباء إذا كانوا متعلمين، وكذلك العمة أو الخالة أو الجدة أو العم أو الخال، كما يتضح ذلك من النصوص المختلفة التي ذكرت أن فاطمة بنت محمد بن أحمد الطبري سمعت عن زينب ابنة أحمد، وكذلك عن عمَّتيها الفاطمتين أم الحسن وأم الحسين(١٥)، وأحيانًا كانت الفتاة تتلقى بعض العلوم على يد علماء أجلاء يكلفون من قبل أسرة الفتاة كما هو الحال مع كمالية عمة ابن فهد؛ إذ سمعت من القاضي زين الدين المراغي، ويذكر صاحب الدر الكمين أنها سمعت عن بعض الشيوخ، وهذا ينطبق على زينب ابنة إبراهيم المكي التي سمعت عن بعض الشيوخ، أما مؤنسة خاتون فقد سمعت عن والدها(١٦)، وكذلك زينب ابنة عبدالله بن ظهيرة فقد قرأت على والدها وعمها ووالدتها وجدَّتها(١٧)، ويذكر عن قريش ابنة عبدالقادر الطبري أنَّ كُتُبَ الحديثِ كانت تُقرأ عليها في منزلها، وأخذت عن أبيها(١٨)، وقد ورد ذكر المنزل مكانًا للتعليم في ترجمة خديجة، وتدعى سعادة ابنة عبدالرحيم الهاشمي المكي(١٩).

وجاء عن بعضهن أن الواحدة منهن كانت تُقْرِئ القرآن للبنات(٢٠)، ويذكر السخاوي أن أم الحسين ابنة عبدالرحمن تعلمت

---

(١٥) ابن فهد، عمر بن محمد : الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مخطوط جامعة الملك سعود، فلم رقم (١٥).

انظر : ترجمة فاطمة بنت محمد الطبري. المصدر نفسه.

انظر : ترجمة كمالية ابنة القاضي تقي الدين محمد بن أحمد. المصدر نفسه.

(١٦) المصدر نفسه، ترجمة مؤنسة خاتون.

(١٧) المصدر نفسه، ترجمة زينب ابنة عبدالله بن ظهيرة.

(١٨) المصدر نفسه، ترجمة قريش ابنة عبدالقادر الطبري.

(١٩) المصدر نفسه، ترجمة سعاد ابنة عبدالرحيم الهاشمي المكي. كحالة، أخبار النساء، ٤/٢٠٦.

(٢٠) ابن فهد، الدر... ترجمة تجار المصرية المكية.

على والدتها الكتابة وسورًا من القرآن الكريم(٢١). هذا وهناك أسماء كثيرة ذكرتها المصادر لنساء تلقين العلم بهذه الطريقة، وأوردت هذه الأمثلة كي أوضح أن البيوت كانت من أهم المراكز التعليمية التي اعتمدت عليها المرأة في تعليمها.

ومن المراكز التي ذكرتها المصادر لتعليم المرأة وتثقيفها الأربطة التي أقيمت في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد شاركت بعض النساء في تأسيس هذه الأربطة، فأم الحسين ابنة قاضي مكة شهاب الدين أحمد أقامت رباطًا إلى جانبه كتاب أيتام، وقفت عليها أوقافًا كثيرة(٢٢)، أما عائشة ابنة علي بن عبدالله الظاهرية فقد أقامت رباطًا في مكة، وكانت قائمة بالمشيخة أحسن قيام كتسبيح وذكر(٢٣)، وزين العرب ابنة عبدالرحمن بن عمر بن الحسين فقد تقلَّدت مشيخة رباط الحرمين(٢٤)، ومن الأربطة التي كانت مخصصة للنساء في مكة مثلاً رباط الساحة(٢٥)، ورباط الفقاعية(٢٦)، ورباط أم الحسين(٢٧)، ورباط ابن السوداء(٢٨)، ورباط عائشة(٢٩).

وفي هذه الأربطة نساء يقمن على تعليم غيرهن أمور الدين وبعض العلوم الأخرى(٣٠)، وقد جاء في ترجمة عائشة ابنة عبدالله

---

(٢١) السخاوي، ١٢/١٤٠.

(٢٢) الفاسي، العقد ٨/٣٣١.

(٢٣) الأزرقي، محمد بن عبدالله. أخبار مكة المشرفة ٢/١١٤، بيروت، لبنان، دون سنة نشر.

(٢٤) كحالة، أخبار ٢/٤٤.

(٢٥) الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١/٣٣٤، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٩٥٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ نشر.

(٢٦) الفاسي، العقد ١/١١٩.

(٢٧) المصدر نفسه ١/١٢١.

(٢٨) الفاسي، شفاء ١/٣٣٦ .

(٢٩) السخاوي، الضوء ١٢/٧٧.

(٣٠) ابن كثير، الحافظ، البداية والنهاية ١٤/٧٢، بيروت مكتبة المعارف، ط١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م.

الطبري أنها كانت من الصالحات العابدات الذاكرات تجتمع عندها النساء في رباطها الذي أقامته في مكة كل يوم سبت(٣١)، ويذكر أن هاجر ابنة الإمام القرشي العقيلي تعلمت الخط والكتابة، ولازمت الشيخة عائشة الظاهرية صاحبة الرباط بمكة، وكانت تتعبد بقيام الليل والطواف(٣٢).

ولا بد أن أشير هنا إلى أن الرباط كان من المراكز التي قامت بدور بارز في تثقيف المرأة وتوعيتها بأمور دينها، خاصة أن الأربطة التي كانت مخصصة للرجال تُعد مراكز ثقافية وتعليمية عالية أسهمت بدور مؤثر في تنمية الحركة العلمية، وتطويرها، وتزويدها بعدد كبير من المؤلفات في مختلف العلوم، ناهيك عن العدد الكبير من الكتب التي أوقفت في تلك الأربطة(٣٣)، والتقاء العلماء من مختلف الأصقاع الإسلامية، والإقامة في هذه الأربطة مددًا زمنية متفاوتة كان لها أكبر الأثر في حركة التعليم والتوعية الناتجة عن المناقشات المستفيضة بينهم في مختلف القضايا إلى جانب وضع العديد منهم بعض مؤلفاته في أثناء إقامته في تلك الأربطة ومجاورته للحرمين الشريفين.

فلماذا لا ينطبق هذا على الأربطة التي كانت مخصصة للنساء ولو بدرجة أقل من تلك التي خصصت للرجال؟.

لقد وردت إشارات كثيرة توضح دور المرأة وإسهامها في العملية التعليمية، نذكر من هذه الإشارات على سبيل المثال "وسمع عنها شيخنا"(٣٤)، و"حضرت على جماعة من

---

(٣١) ابن فهد، الدر، ترجمة عائشة ابنة علي بن عبدالله الطبري.

(٣٢) المصدر نفسه، ترجمة هاجر ابنة الإمام القرشي العقيلي.

(٣٣) ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١/١١٨، ١١٩، ٢/٣٤٨، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، دون سنة نشر.

(٣٤) الفاسي، العقد ٨/٢٥٦.

الشيوخ"(٣٥)، و"وعظت النساء"(٣٦)، و"سمع عنها الشيخ ابن حجر"(٣٧)، و"سمع عنها شيخنا برهان الدين"(٣٨)، و"ارتحل إليها الطلبة"(٣٩).

وهناك إشارات تدل على أن المرأة كانت تتلقَّى الدروس على يد الرجال حضورًا(٤٠)، ويذكر السخاوي عن أنس ابنة عبدالكريم بن أحمد أنها حدَّثت بحضور ابن حجر(٤١)، كما درست زينب ابنة أحمد بن ميمون على عدد من العلماء(٤٢)، أما زينب ابنة اليافعي(٤٣) فكانت تجيز للنساء والرجال، وتلقي الدروس على طلابها، وكانت تسمح لهم بتصحيح بعض ما تلقيه بخطوطهم، أما سعادة ابنة الحسن بن عمر ومعها أمها فقد سمعتها مع والدها عن السخاوي، وكانت ملازمة لوالدها(٤٤)، ويلحظ أن الإشارات السابقة لا تحدد مكانًا للسماع، ولا يعقل أن تكون هذه الإشارات الكثيرة تمَّت في المنازل أو الأربطة فقط، وإنما توحي بأن هناك حلقاتِ تدريس تسمى "مجالس السماع" كانت تعقد للنساء من قبل الرجال أو العكس، ولكن بشكل غير

---

(٣٥) ابن فهد، الدر، ترجمة ست قريش.

(٣٦) السخاوي، الضوء ١٥/١٢.

(٣٧) ابن العماد، ٢٨/٧.

(٣٨) الفاسي، العقد ٢٥٦/٨.

(٣٩) ابن العماد، شذرات ٥٦/٦.

(٤٠) المصدر نفسه، ٢٨٠/٦.

(٤١) ابن حجر، الدرر ١٠/١٢- ١١، تحقيق محمد سيد عبدالحق، القاهرة، أم القرى للطباعة ١٩٦٦م.

(٤٢) السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ٢٥٦/٢، أسعد الحسيني، الدمام ١٤٠٠هـ.

(٤٣) اليافعي، هو عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي الشافعي اليمني المكي، ابن حجر الدرر ٣٥٢/٢ - ٣٥٤. السخاوي، التحفة ٢٩٤/٢- ٢٩٥، ١١٠/٣.

(٤٤) السخاوي، التحفة ٤٩٢/١- ٤٩٤.

مباشر أي لا يحدث فيها اختلاط، ودليلنا على ذلك ما ورد في ترجمة الشيخ محمد بن أحمد الأشموني من أنه كان متخصصًا في تعليم النساء(٤٥)، كذلك ما ذكره ابن رشيد الذي زار المدينة المنورة عام ٦٨٤هـ من أنه سمع عن إحدى المحدِّثات، واسمها الشيخة الصالحة أم الخير أم محمد فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر المعروف بالبطائحي :" وهذه الشيخة جاءت زائرة وحاجَّة لقيتها بمسجد المصطفى ﷺ، وقرئ عليها وهي مستندة إلى جانب رواق الروضة الكريمة تجاه رأس المصطفى ﷺ، وكتبت لي بخطها بالإجازة في جميع مروياتها، وكانت تسدل جلبابها على وجهها حياءً وصونًا "(٤٦)، وكذلك قيل في زينب ابنة مكي بن علي : إنها تولت التدريس، وازدحم الطلبة عندها(٤٧)، ويؤكد السخاوي على وجود حلقات علمية كانت تعقد من قبل بعض النساء الفقيهات(٤٨)، ويذكر ابن فرحون أنه طلب من الشيخ محمد بن القصري الأنصاري وهو أحد شيوخ الحرم أن يعظ الناس، فخصص لهم كل يوم جمعة بعد صلاة الصبح، ولم يبق أحد بالمدينة إلا حضر مجلسه من مجاورين وخدام ورجال ونساء وصبيان(٤٩)، وهناك بعض النساء المتعلمات يلقين الدروس، ويحضرها الرجال؛ إذ يذكر ابن فهد أنه أخذ عن كمالية ابنة القاضي تقي الدين(٥٠)، وكذلك أخذ عن خديجة، وتدعى

---

(٤٥) السخاوي، الضوء ٦/٢١٦- ٢١٧.

(٤٦) ابن رشيد، أبو عبدالله محمد بن عمر السبتي، ملء العيبة مما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، ص٢١- ٢٥، تحقيق د. محمد حبيب الخوجه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.

(٤٧) ابن العماد، شذرات ٣/٢٨، المكتب التجاري، بيروت، دون تاريخ.

(٤٨) السخاوي، الضوء ١٢/١٥.

(٤٩) ابن فرحون، نصيحة المشاور وتسلية المجاور، ورقة ٦٠ مخطوط بجامعة الملك سعود.

(٥٠) ابن فهد، الدر، ترجمة كمالية ابنة القاضي تقي الدين.

سعيدة ابنة عبدالرحيم العقيلي النويري(٥١)، وعن زينب ابنة أحمد بن موسى المكي، يقول ابن فهد : " سمعت منها أنا وبعض الفضلاء "(٥٢)، ويشير ابن فهد إلى أن المرأة كانت تعقد بعض حلقات الدروس في الحرم المكي أحيانًا، وقد ورد ذلك في ترجمته لزينب ابنة أحمد بن محمد عندما قال : " وحدثت معها في الحرم المكي ببعض الكتب، وأخذت عنها بعض الأحاديث "(٥٣)، ويذكر أنه سمع من حسن ابنة الشيخ محمد، وسمع منها القاضي نجم الدين بن ظهيرة(٥٤). وعلى الرغم من أن العملية التعليمية للمرأة لم تكن تتم في أماكن مخصصة لها كما لحظنا، إلا أن صاحب العقد الثمين يذكر أن هناك دويرة للنساء، يتلقين فيها الوعظ والإرشاد وربما دروس أخرى(٥٥)، وعلى الرغم من هذه الإشارة إلا أننا لا نستطيع أن نؤكد على وجود أماكن مخصصة للتعليم.

وعلى العموم يمكن أن نعد هنا أن حلقات الدروس المختلفة التي كان يعقدها الشيوخ في الحرمين الشريفين أدوات بل مراكز تثقيف تستفيد منها المرأة ولو بشكل غير مباشر، فالحاضرون في هذه الحلقات إما أن يكونوا أزواجًا أو أبناء أو آباء أو إخوة أو أعمامًا أو أخوالاً ينقلون ما سمعوه وما فهموه إلى بيوتهم، فتعم الفائدة.

ومن المصادر التي اعتمدت عليها المرأة في تعليمها وتثقيفها الرحلات؛ إذ كانت المرأة تنتقل من مكان إلى آخر متحملة مشاق السفر وعناء الترحال بسبب صعوبة التنقل وبدائية وسائله من ناحية، ومخاطر الطرق من ناحية

من المصادر التي اعتمدت عليها المرأة في تعليمها وتثقيفها الرحلات

---

(٥١) المصدر نفسه، ترجمة خديجة ابنة سعيد بن عبدالرحيم العقيلي.

(٥٢) المصدر نفسه، ترجمة زينب ابنة أحمد بن موسى المكي.

(٥٣) المصدر نفسه، ترجمة زينب ابنة أحمد بن محمد.

(٥٤) كحالة، ٩٤/٤.

(٥٥) الفاسي، العقد ٢٣٨/٨.

أخرى، فها هي ذه أم هانىء زينب ابنة العلامة تقي الدين أبي الفضل تنتقل بين أماكن كثيرة، ويجاز لها فيها؛ إذ يذكر عمر بن فهد صاحب كتاب معجم الشيوخ : " وأجاز لها خلائق من الحرمين الشريفين والقدس والخليل والقاهرة ودمشق وحلب وبعلبك وحمص وغزة والرملة وعدة بلدان "(٥٦)، أما فاطمة ابنة تقي الدين أبي الفضل محمد بن فهد فقد أجاز لها علماء من تلك البلدان التي ذكرناها(٥٧)، وهذا ينطبق على الشيخة زينب ابنة القاضي شهاب الدين الطبري؛ إذ زارت القدس والخليل، وتوجهت من هناك إلى مصر، وجاءت إلى مكة في عام ٧٩٠هـ(٥٨).

ويذكر ابن فهد أن كمالية ابنة محمد بن محمد الهاشمية المكية سافرت مع زوجها إلى القدس والخليل وغزة والرملة ودمشق والقاهرة(٥٩)، وجاء في العقد الثمين أن أحد العلماء قال : " وسمعت آمنة ابنة عثمان بن حسن بن عثمان ببغداد والموصل "(٦٠)، أما ست قريش التي ولدت بمكة عام ٨١٤هـ فقد أجاز لها علماء من الحرمين الشريفين والقدس والخليل ومصر ودمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك وطرابلس وغزة والرملة والإسكندرية وزبيد وتعز(٦١)، وهناك فاطمة ابنة القاضي محب الدين أحمد بن القاضي جمال الدين بن ظهيرة وتلقب أم الحسين، فقد أجاز لها جماعة من القاهرة ودمشق

---

(٥٦) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص٣٩٧ - ٤٠٠، تحقيق محمد الزاهي، دار اليمامة، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

(٥٧) المصدر نفسه، ص٤٠٤- ٤٠٥.

(٥٨) ابن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ٣/٣٧١، تحقيق فهيم شلتوت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٢م. الفاسي، العقد ٨/٢٢٤.

(٥٩) ابن فهد، الدر... ترجمة كمالية ابنة محمد بن محمد الهاشمية المكية. السخاوي، ١٢/١٢٢ . كحالة، ٤/٢٦٤- ٢٦٥.

(٦٠) الفاسي، العقد ٨/١٨٤.

(٦١) ابن فهد، الدر، ترجمة ست قريش.

وبعلبك والقدس والخليل ومكة(٦٢). ومن الأمور التي لا يمكن إغفالها هنا هي أن المرأة اعتمدت على نفسها في كثير من الأحيان لزيادة ثقافتها، وتوسيع دائرة معارفها عن طريق قراءة بعض الكتب خاصة إذا كانت تجيد القراءة والكتابة؛ إذ أكَّد ابن فهد أنه حدَّث مع زينب ابنة أحمد بن محمد المكي في الحرم المكي ببعض الكتب، ووصف إحداهن بأنها محدثة حافظة للقرآن الكريم وشاعرة أديبة، وأخرى بأنها تجيد القراءة والكتابة، أما سعيدة ابنة قاضية الحرمين عز الدين فقد اهتمت بدراسة الحديث(٦٣).

طرق التدريس :

كما لحظنا فإن التدريس في المنازل كان يتم مباشرة بين الفتاة ووالديها أو أحدهما، وكذلك الأقارب، أما في الأربطة وغيرها فقد غلبت طريقة السماع التي كانت تتم عن طريق عقد مجالس متعددة ومختلفة الأسلوب والطريقة والموضوعات فما طبيعة هذه المجالس ؟

مجالس السماع :

لا تكاد تخلو ترجمة من تراجم النساء اللائي كن عالمات أو متعلمات من كلمة " وسمعت "، و" سمعت عن "، و" سمع عنها "، وهذا يعني أن طريقة السماع كانت إحدى الوسائل التي طبِّقت لتدريس المرأة، وكانت هذه الطريقة معمولاً بها للرجال وللنساء، وكان الآباء يرافقون بناتهم إلى حلقة الدرس(٦٤)، وقد فعل ذلك الحسن بن عياد الذي اصطحب ابنته لسماع الحديث عن كبار علماء المدينة(٦٥). وتنقسم طريقة السماع قسمين :

---

(٦٢) المصدر نفسه، ترجمة فاطمة ابنة القاضي محب الدين أحمد ... ظهيرة، وتكنّى أم الحسين.

(٦٣) المصدر نفسه، ترجمة كمالية ابنة القاضي تقي الدين.

(٦٤) السخاوي، التحفة ١/٤٩٤- ٣/٦٤٢.

(٦٥) ن م، ١/٤٩٤، الضوء ٣/١٢٠.

١- أن تسمع الفتاة عن شيختها أو شيخها من كتاب يُقرأ.

٢- أن تسمع الفتاة عن شيخها أو شيختها بعضًا من محفوظاتهم، ويتم ذلك بإحدى طريقتين :

أ - أن تحاول المتعلمة حفظ المعلومات التي تأخذها عن شيخها أو شيختها.

ب - أن تدون المتلقية للعلم المعلومات التي تأخذها عن طريق الإملاء(٦٦).

وقد وردت إشارات كثيرة في المصادر المختلفة توضح ذلك، نذكر على سبيل المثال لا الحصر : "وتعلمت على والدتها الكتابة وسورًا من القرآن الكريم "(٦٧)، و" أكثرت من مطالعة رياض الصالحين "(٦٨)، و"كانت قارئة كاتبة "(٦٩)، و" خرّج(٧٠) لها وحدثت"، "حدثت وأخذ عنها الفضلاء"(٧١)، ويبدو أن مجالس السماع هذه لم تكن مرتبطة بزمان أو مكان محددين، أو بعدد من الطلبة أو الطالبات، وإنما كانت تعقد حسب ظروف الشيخ أو الشيخة، أو كما يطلب من أي منهما، وللسامع أو السامعة أن تحضر هذه كلها أو جزءًا منها؛ إذ ورد عن بعضهن : " وسمعت سنن أبي داود، والمجلس الأخير من صحيح البخاري، وبعض مسند أحمد "(٧٢)، و"سمعت المجلس الأخير من سنن

---

(٦٦) صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه ص٨٨، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

(٦٧) السخاوي، الضوء، ١٢/١٤٠.

(٦٨) المصدر نفسه، ص١٥.

(٦٩) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٧٠) التخريج هو عزو الحديث إلى مصادره الأصيلة بذكر من رواه من المؤلفين وإبرازه للناس بذكر رجال إسناده الذين خُرِّج الحديث عن طريقهم. محمود الطحان : التخريج ودراسة الأسانيد ص١٠-١١.

(٧١) السخاوي، ١٢/٢٠، ٢٣، ٢٤.

(٧٢) ابن فهد، معجم الشيوخ ٣٩٧- ٤٠٠، وانظر ترجمة أم هانئ زينب ابنة تقي الدين في الدر الكمين.

ابن ماجه، وأوله صفة الجنة "(٧٣)، و"حضرت مجلسًا في فضل رمضان لابن عساكر"(٧٤)، و" سمعت السنن لأبي داود وصحيح ابن حبان والموطأ "(٧٥)، و " سمعت عن جماعة من الشيوخ الربع الأول من السنن الكبرى للبيهقي، وسمعت قطعة من أول الموطأ "(٧٦)، و"حضرت مجلسًا من إملاء أبي سهل أحمد بن محمد بن زياد "(٧٧)، وأخرى حضرت مجلسًا من إملاء أمالي أبي الحسن علي بن محمد الأسواري(٧٨)، وثالثة حضرت سبعة مجالس من أمالي المخلص(٧٩).

الإجازات(٨٠):

والإجازة تعني في أيامنا شهادة التخرج، لكن مع فارق جوهري، وهو أن الإجازة لم تكن تعطى من مدرسة أو معهد، كما أن السلطة

---

(٧٣) ابن فهد، معجم ص٣٠٤.

(٧٤) ابن حجر، الدرر الكامنة ١/٣٨٤، دار الكتب الحديثة مطبعة المدني، القاهرة، د.س.ن.

(٧٥) ابن فهد، الدر، ترجمة كمالية ابنة نجم الدين عمة ابن فهد.

(٧٦) المصدر نفسه، ترجمة ست قريش.

(٧٧) ابن فهد، معجم ص٣١٥.

(٧٨) المصدر نفسه، ص٣٢٣- ٣٢٤.

(٧٩) المصدر نفسه، ص٣٩٧- ٤٠٠.

(٨٠) أولها : إجازة معين لمعين، وهذا أرفع أنواع الإجازة المجردة عن المناولة.

الثاني : أن يعين الشخص المجاز له دون الكتاب المجاز.

الثالث : أن يعم المجاز له فلا يعينه كقوله : "أجزت للمسلمين أو لكل أحد ... ".

الرابع : الإجازة للمجهول أو بالمجهول.

الخامس : الإجازة المعلقة بالمشيئة.

السادس : الإجازة للمعدوم، وهي على قسمين :

أحدهما : أن يعطف المعدوم على الموجود كقوله : " أجزت لفلان ولولده وعقبه ما تناسلوا ".

الآخر : أن يخصص المعدوم بالإجازة من غير عطف على موجود كقوله: " أجزت لمن يولد لفلان ". =

الحاكمة لم يكن لها أي علاقة بهذا الأمر بل كانت تعطى من قبل الشيوخ أو الشيخات لمن تتوافر فيه أو فيها شروط منح الإجازة، والإجازة إما شفوية أو مكتوبة، وفي معظم الأحيان تكتب الإجازة على الكتاب الذي أجازه الشيخ لتلميذه، وصنف آخر من الشهادات المكتوبة هي عبارة عن كراسة يكتبها الشيخ بخطه وباسمه الشخصي، ويتضمن هذا النوع من الإجازات صفة صاحب الإجازة أو صاحبتها، والألقاب الشرفية التي يرى الشيخ بأن تلميذه يستحقها(٨١)، وأحيانًا يشار في الإجازة على قدرة مستحقها في القراءة والدقة والإتقان(٨٢).

وقد استوقفني في تعليم المرأة في ذلك العهد قضية الإجازات، فالمرأة كانت تحصل عليها من شيخ واحد أو أكثر، بل ربما حصلت عليها من امرأة عالمة، وفي الوقت نفسه تقدم المرأة الإجازة إلى بعض الشيوخ، ولا غرابة في هذا الأمر، لكن اللافت للنظر هنا هو السن الذي تحصل فيه الفتاة على الإجازة؛ إذ ذكرت المصادر أن إحداهن حصلت على الإجازة في سنة مولدها عام ٧٩٧هـ عن عدد من الشيوخ (٨٣)، وأخرى ولدت عام ٨٠١هـ، وحصلت على الإجازة في عام ٨٠٢هـ من قبل الكثيرين (٨٤)، وثالثة ولدت عام

= السابع : الإجازة لمن ليس بأهل حين الإجازة للأداء، والأخذ عنه.

الثامن : إجازة ما سيحمله المميز مما لم يسمعه قبل ذلك.

التاسع : إجازة المجاز كقوله : " أجزت لك مجازاتي ونحو ذلك ".

انظر : الحافظ زين الدين عبدالرحيم بن الحسن ت٨٠٦هـ شرح فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت، عالم الكتب، ط٢، ١٩٨٨م، ص٢٠٠.

(٨١) السخاوي، التحفة ٣/١٥-١٦، الضوء ٤/٢٠٧.

(٨٢) السخاوي، التحفة ١/١٣١ - ٣/٥٨٣.

(٨٣) المصدر نفسه، ص٣٠٣- ٣٢٣.

(٨٤) المصدر نفسه، ص٣٠٥.

٧٩٩هـ، وأجازوا لها في عام ٨٠٤هـ (٨٥)، ورابعة ولدت عام ٧٦٨هـ، وأجازوا لها في عام٧٧٠هـ.

وهناك إشارات كثيرة من هذا القبيل، وهي في حاجة إلى وقفة وتفسير؛ إذ إن الإجازة لا تعطى أو ينبغي ألا تعطى إلا للراشدات البالغات من النساء، وهن على قدر كبير من العلمٍ والثقافة يمكنهنَّ من المناقشة والتحليل والتعليق والقياس أحيانًا وإقناع الآخرين بقدرتهنَّ على سبر أغوار الموضوع وتقديمه بأسلوب علمي مقبول ومعتدل، أما أن تعطى لأطفال في مثل هذا السن فهذا أمر مستغرب على الرغم من تكرار ذكره في مواضع كثيرة كما سبق أن ذكرت.

ولكن يمكن الاجتهاد في وضع تفسير لهذه الظاهرة الغريبة فربما يكون منح الإجازة في مثل هذه الظروف هو نوع من تكريم لوالد الفتاة أو والدتها إذا كانوا يتمتعون بمكانة علمية مرموقة، وقد يكون هذا من باب التفاؤل أو الأمل بأن تكون هذه الفتاة ممن ينتظرهن مستقبل علمي مرموق.

وعلى العموم، فالمرأة لم تكن متلقية للإجازات فقط، ولكنها كانت تجيز لغيرها من العلماء الأجلاء، ويتفاخر هؤلاء بأنهم تلقوا الإجازة عن عالمات فاضلات، وقد ذكر المؤرخ المعروف السخاوي أنه تلقى الإجازة عن نساء عالمات في أكثر من موضوع في كتابه الضوء اللامع؛ إذ يقول : " وأجازت لنا "(٨٦)، وقد حصل أبو حامد بن ظهيرة إجازة عن الفقيهة عائشة ابنة عبدالله بن محب الدين الطبري (٨٧)، وكذلك الشهاب أحمد الحنفي، فقد حصل على إجازة من فاطمة ابنة الشيخ تقي الدين القسطلاني(٨٨)، ويكفي في هذا الصدد شهادة أحد

---

(٨٥) المصدر نفسه، ص٣١٥.

(٨٦) السخاوي، ١٢/٢، ١٢، ١٢٧، ١٥٨، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٤، ١٥٦، ١٦٠.

(٨٧) ابن حجر، الدرر ٣٤٠/٢.

(٨٨) الفاسي، العقد ٢٨٧/٨.

الشيوخ الأجلاء ممن عاصروا هذه المدة وهو ابن فهد الذي كتب وأرّخ لهذه الحقبة، وكان يتفاخر بحصوله على إجازات عن كثير من مسندات عصره.

ومن الجدير بالذكر أن بعض الفقيهات لم يكتفين بالحصول على إجازة واحدة من شيخ بعينه، وإنما تعددت مصادر الإجازات؛ إذ ترددت إشارات لا حصر لها في مصادر تلك المدة تقول : " وأجاز لها كثيرون "، أو " أجاز لها جماعة "، فمثلاً الشيخة كمالية ابنة علي بن أحمد النويري حصلت على إحدى وثلاثين إجازة(٨٩)، ويذكر ابن فهد بعد هذا الرقم : "وأجاز لها آخرون"(٩٠)، أما الشيخة منصورة ابنة عبدالله فقد حصلت على تسع عشرة إجازة(٩١)، أما زينب ابنة العلامة تقي الدين أبي الفضل فقد بلغ من أجاز لها من الرجال والنساء خمسًا وخمسين، وكان ابن فهد كلما ذكر علماء بلد من البلدان يقول : " وآخرون"، أو "وخلق كثير"(٩٢)، أما ست قريش واسمها فاطمة ابنة العلامة تقي الدين أبي الفضل محمد بن فهد الهاشمي فقد أجاز لها ستة وعشرون ما بين عالم وعالمة، ثم قال : " وخلق كثير"(٩٣)، وكذلك الحال مع هبة الله مستولدة العلامة تقي الدين بن فهد الهاشمي فقد حصلت على ست عشرة إجازة(٩٤).

ومن الجدير بالذكر أنه كلما زاد عدد الإجازات للشيخة الواحدة زادت مكانتها العلمية تقديرًا واحترامًا في مجتمعها، خاصة بين

---

(٨٩) ابن فهد، معجم ص٣٢٥- ٣٢٦.

(٩٠) المصدر نفسه، ص٣٢٨.

(٩١) المصدر نفسه، ص٣٢٩.

(٩٢) المصدر نفسه، ص٣٩٧- ٤٠٠.

(٩٣) المصدر نفسه، ص٤٠٤- ٤٠٥.

(٩٤) المصدر نفسه، ص٤٠٧- ٤٠٨.

الفئات المتعلمة، وإلا فلماذا هذا الإصرار على الإكثار من نيل الإجازات الكثيرة ؟.

إن ما يمكن استنتاجه من هذا العدد الكبير من الإجازات التي تحصل عليها امرأة واحدة يدل دلالة واضحة على روح علمية عالية حملت هذه النخبة من النساء على عدم الاكتفاء بإجازة من يجتمعن به من الشيوخ في مكة أو المدينة، بل تطلعن إلى الخارج للحصول على هذه الإجازات، ويدل كذلك على طموح المرأة واتساع ثقافتها وتطلعها دائمًا إلى مزيد من العلم، كما يدل أيضًا على تعدد العلوم التي تحاول المرأة الإلمام بها، كذلك فإن تعدد مصادر الإجازات يقدم لها ثقافة واسعة مختلفة الأصول والمنابت تبعًا للخلفية الثقافية لكل شيخ من الشيوخ الذين تقابلهم وتتلقى عنهم في بلدانهم المختلفة والمتباعدة، كما أن رحلات المرأة إلى تلك البلدان المختلفة كانت كفيلة بإكساب المرأة أنواعًا مختلفة من العلوم والمعارف وخاصة تلك المتعلقة بعادات الشعوب وتقاليدها، بالإضافة إلى أنها تمكنها من التعرف على طبيعة تلك البلدان وأسواقها ومدارسها ومساجدها، وما تحويه تلك البلدان من معالم أثرية وغيرها، والمعروف أن هذه المعارف والمعلومات المكتسبة عادة ما يكون لها ردة فعل إيجابية على توسيع دائرة المعرفة وتنميتها وتنوعها، وسينعكس ذلك إيجابًا على عطائها ومساهمتها في بناء أسرتها أولاً ومجتمعها ثانيًا، فالأبناء يأخذون عن الآباء والأمهات أولاً، ومن ثم عن غيرهم عندما يكبرون، ويتتلمذون على الفقهاء من رجال ونساء.

العلوم التي اهتمت بها المرأة :

القرآن الكريم وأسباب النزول :

كان تعليم القرآن الكريم أول العلوم التي وجدت اهتمامًا مميزًا، خاصة أنه مرتبط بفريضة الصلاة التي يجب أن يتعلمها الأطفال في

سن مبكرة؛ إذ يقوم الأب أو الأم على تعليم أطفالهم بعض السور القصيرة من القرآن الكريم، وبالتدريج يعملون على تحفيظهم ما تيسر منه، وأحيانًا لا يتطلب حفظ جزء أو أجزاء من القرآن الكريم معرفة القراءة أو الكتابة؛ لأن الحفظ بالتلقين كان واردًا، وقد ذكرت المصادر أسماء شيخات مارسن حفظ القرآن وتعليمه وكذلك أسباب النزول(٩٥)، ومنهن من حضرت مجالس تتحدث عن أسباب النزول(٩٦)، وذكر صاحب العقد الثمين أن زينب ابنة قاضي مكة كانت تقرأ القرآن، وكانت ذات رياسة وهمة ومروءة(٩٧)، وأم الحسين ابنة عبدالرحمن تعلمت على والدها الكتابة وسورًا من القرآن الكريم، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن صاحب الضوء أشار في مكان آخر إلى أن بعض النساء أجدن تلاوة القرآن الكريم على معظم القراءات(٩٨).

علم الحديث النبوي الشريف :

هناك إشارات كثيرة توضح اهتمام المرأة بعلم الحديث وفهمه والتحديث به أي تعليمه للآخرين حتى إن لقب المحدثة أطلق على عدد كبير من نساء ذلك الوقت، وكثيرًا ما تطالعنا عبارة : "وسمع منها الفضلاء "(٩٩)، "وسمع منها الأئمة"(١٠٠)، " حجت وجاورت وحدثت "(١٠١)، "حدثت وسمعت منها" (١٠٢)، "محدثة وخرَّج لها

---

(٩٥) ابن فهد، الدر، ترجمة عائشة بنت عبدالله الطبري. كحالة، أخبار ٢/١٠٦.

(٩٦) ابن فهد، معجم ص٣٩٧- ، ٤٠٠ وانظر : ترجمة ست قريش في الدر الكمين.

(٩٧) الفاسي، العقد ٨/٢٣٢.

(٩٨) السخاوي، الضوء ١٢/١٥، ١٤٠.

(٩٩) المصدر نفسه ١٢/١٠٠.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص١٨.

(١٠١) المصدر نفسه، ص١١.

(١٠٢) ابن فهد، الدر، ترجمة فاطمة وشمس بركة ابنة محمد الطبري.

ابن فهد "(١٠٣)، " خرج لها وحدثت "(١٠٤).

هذا وهناك عدد من النساء حصلن على الإجازة ولم يحدثن، وقد أشارت المصادر إلى ذلك، نذكر بعضها: " أجاز لها جماعة وما علمتها حدثت "(١٠٥)، و" بعض النساء كانت تعطى الإجازة لكنها لم تحدث"(١٠٦)، وهناك إشارات أخرى مثل : "محدثة ذات سند في الحديث"، و"أخبرتنا المسندة الأصيلة"(١٠٧). وقد لقبت بهذا اللقب؛ لأنها حفظت معظم كتب الحديث، وأخذ عنها كثير من العلماء، وكانت فاطمة ابنة أبي اليمن تدرس الحديث في المدينة المنورة(١٠٨). وقد سمع محمد بن علي بن خضر المتوفى سنة ٨٣٢هـ من أم الحسن فاطمة ابنة الشهاب أحمد بن قاسم صحيح مسلم(١٠٩)، وقد خرج السخاوي أربعين حديثًا لأنسى ابنة عبدالكريم بن أحمد(١١٠).

علم التاريخ والتراجم :

كان لعلم التاريخ والتراجم نصيب وافر في اهتمامات المرأة في أرض الحرمين الشريفين، قراءة وسماعًا وتأليفًا؛ إذ أسعفتنا المصادر بإشارات توضح مدى هذا الاهتمام، فالشيخة عائشة ابنة عبدالله الطبري ألفت كتابًا في التاريخ(١١١)، وكذلك كمالية ابنة نجم الدين

---

(١٠٣) المصدر نفسه، ترجمة زينب ابنة عبدالله. السخاوي، الضوء ١٢/٤٣ . كحالة، أخبار ٢/٧٣.

(١٠٤) الفاسي، العقد ٨/٢٢١.

(١٠٥) المصدر نفسه، ٨/٢١٠- ٢١١، ٢٣٥.

(١٠٦) ابن فهد، الدر ترجمة آسيا بنت جار الله.

(١٠٧) المصدر نفسه، ترجمة زينب ابنة إبراهيم بن أحمد المكي.

(١٠٨) السخاوي، التحفة ٣/٥٤٧- ٥٤٨.

(١٠٩) السخاوي، التحفة ٣/٦٧٣.

(١١٠) نفسه، الضوء ١٢/١٠- ١١.

(١١١) كحالة، أخبار ٣/١٥٥.

عمة ابن فهد، فقد كان لها اهتمام بالتاريخ؛ إذ سمعت السيرة لابن إسحاق وكذلك تاريخ مكة للأزرقي(١١٢)، وسمعت يهب الله ابنة عبدالله المجلس الأول من تاريخ البغدادي(١١٣)، هذا وقد وجد كتاب الأنساب للزبير بن بكار إقبالاً ملحوظًا(١١٤)؛ إذ سمعت كل من أم هانئ ويهب الله قطعة منه(١١٥)، أما زينب ابنة أحمد بن محمد فقد سمعت كتاب أسلاف النبي ﷺ للمسيي(١١٦)، وزينب ابنة أحمد بن إبراهيم فقد سمعت جزءًا، فيه من عاش مئة سنة وعشرين(١١٧)، أما هبة الله ابنة عبدالله فقد سمعت كتاب الذرية الطاهرة للدولابي(١١٨).

لعلم التاريخ والتراجم نصيب وافر في اهتمامات المرأة في أرض الحرمين الشريفين، قراءة وسماعًا وتأليفًا

الأدب:

كان الأدب كغيره من العلوم له نصيب من اهتمامات المرأة في تلك البقاع المقدسة، وخاصة الشعر الذي اشتهرت به بعض النساء، أمثال آمنة بنت عثمان بن أحمد بن عثمان، ومن شعرها:

لا يكون الأمر سهلاً كله   إنما الدنيا سهول وحزون
هوِّن الأمر تعش في راحة   قلَّ ما هونت إلا سيهون
تطلب الراحة في دار الفنا   خاب من يطلب شيئًا لا يكون(١١٩)

---

(١١٢) ابن فهد، الدر، ترجمة كمالية ابنة نجم الدين عمة ابن فهد.

(١١٣) المصدر نفسه، ترجمة يهب الله ابنة عبدالله.

(١١٤) ابن فهد، معجم ٣٩٧- ٤٠٠.

(١١٥) ابن فهد، الدر، ترجمة يهب الله وأم هانئ (سبق التعريف بهما).

(١١٦) ابن فهد، معجم ص٣١٥.

(١١٧) ابن فهد، الدر، ترجمة زينب ابنة إبراهيم بن أحمد.

(١١٨) ابن فهد، معجم ٤٠٧- ٤٠٨.

(١١٩) الفاسي، العقد ١٨٧/٨.

إنها دعوة للإيمان بالله وقدرته والتوكل عليه، دعوة للزهد في التكالب على مباهج الحياة الفانية، ولا عجب في ذلك فهي دعوة تخرج من أقدس بقعة على وجه الأرض.

كذلك ذكر أن لخديجة ابنة الشيخ بهاء الدين أحمد النويري شعرًا حسنًا وأنها كاتبت به الشيخ بهاء الدين السبكي، ففي ذات مرة كانت في طريقها لزيارة مسجد الرسول ﷺ، فبعثت إلى الشيخ بهاء الدين بحلواء من عقيد، وكتبت له :

بعثت لكم بشيء من عقيد(١٢٠) هديته لقلتهِ فضيحة
ولكنا لنخبركم بأنَّا عقيدَة ودنا فيكم صحيحة

فأجابها بأبيات، وكتبت إليه أبياتٍ تمدحه فيها على قافية النون، فأجابها بأبيات على وزنها، نذكر منها :

بركات أم المؤمنين خديجة عمت قوافلها وفاض نداها
ولها قصائد في النبي محمد ستنال في الجنات طيب جناها

ولها مكاتبات أخرى، وذكر الفاسي أن لها نظمًا آخر كثيرًا، ولها قصائد قالتها في رسول الله ﷺ، منها قصيدة لامية أولها :

حمل الغرام عليَّ ما لا أحملُ فرثى لحالي من يلوم ويعزل(١٢١)

---

(١٢٠) العقيد : وعقدَ العسلُ والرُّبُّ ونحوهما يَعْقِدُ وانعقد وأعقدته فهو معتقد وعقيد : غليظ، وكذلك عقيدُ عصير العنب، وروى بعضهم عَقَّدتُ العسل، واليعقيد : عسل يعقد حتى يخثر، وقيل : اليعقيد طعام يعقد بالعسل. مادة : عقد - لسان العرب - (ابن منظور جمال الدين أبو محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت ١٣٠٠هـ).

(١٢١) الفاسي : العقد، ٢٠٨/٨.

هذا إلى جانب عدد آخر من النساء ممن كن يتذوقن الشعر، ويستمعن إلى القصائد المختلفة، ويتحدثن بها(١٢٢)، فأم هانئ زينب سمعت قصيدتي البوصيري البردة والهمزية(١٢٣)، وكذلك ست قريش، ولكمالية ابنة القاضي تقي الدين(١٢٤) نظم في الرسول ﷺ، وقد ذكر الفاسي أن خاتون ابنة محمد بن علي الأصبهاني تقول الشعر، وقد ألفت كتابًا اسمه " الرموز من الكنوز " يقع في خمسة مجلدات(١٢٥). ومن الجدير بالذكر أن مجالس السماع أحيانًا كانت تضم أحد الشعراء يلقي قصيدة شعرية، وعندئذٍ يسمح لمن حضر من النساء أن تنشد هذه القصيدة، ولكن شريطة أن تقول: "أنشدنا فلان بلفظه"، وكان صاحب القصيدة أحيانًا يكتب لإحداهن أو لأحدهم إذنًا بإلقاء القصيدة، ويمكن للمجازة أن تجيز لغيرها بإلقاء هذه القصيدة، فإن لم تجز لغيرها يقال : " إنها تفردت بالإنشاد "، وإذا كان رجلاً يقال : "إنه تفرد بالإنشاد"(١٢٦).

هذا ولا يستبعد أن يكون للمرأة بعض المعارف بعلوم أخرى لها صلة بالحياة اليومية في مجتمعها، فقد عمل بعضهن قابلاتٍ، وهذه المهنة لا بد لصاحبتها من معرفة ولو متواضعة في العلوم الطبية، على الرغم من أن هذه المهنة قد تؤخذ عن طريق الوراثة من الأم إلى الابنة، ومع ذلك فمعرفتها بهذه المهنة تتطلب مهارة طبية ولو متواضعة، ولما كانت أرض الحرمين الشريفين قد عرفت البيمارستانات فلا بد من وجود نساء مارسن مهنة التمريض أو المداواة بشكل أو آخر، ولا ننسى أن بعض النساء عملن أو مارسن

---

(١٢٢) كحالة، أخبار ١٠٦/٢.

(١٢٣) ابن فهد، معجم ٣٩٧- ٤٠٠.

(١٢٤) ابن فهد، الدر، ترجمة كمالية ابنة القاضي تقي الدين وست قريش.

(١٢٥) الفاسي، العقد ٢٠٢/٨.

(١٢٦) الفاسي، العقد ٢٠٥/٨، ٢١٠، ٢٢٠.

مهنة التجارة أو الإشراف على بعض الأوقاف وإدارتها، الأمر الذي كان يتطلب منهن الحساب وعلمه وما يتعلق به في حياتهن اليومية.

ظروف أثرت في تعليم المرأة:

بداية أود أن أشير إلى أن معظم ذوات المكانة العلمية الرفيعة ينتمين إلى أسر علمية معروفة(١٢٧)، طالما تبوأ عدد من أبنائها وظائف القضاء والإمامة والتعليم والخطابة والأذان وغيرها، وكانت المصاهرة بين هذه الأسر أحيانًا طريقًا إلى رفع شأن الواحدة منهن علميًا أو وظيفيًا أو اجتماعيًا، أو التشرف بمصاهرة بعض الأسر الشريفة(١٢٨)، ولم تقتصر المصاهرة بين هذه الأسر على مكان بعينه وإنما كانت تتم أحيانًا بين أسر مقيمة في أماكن مختلفة(١٢٩). بالإضافة إلى المصاهرة، فهناك مواسم الحج والعمرة؛ إذ يتردد أعداد كبيرة من الفقهاء والعلماء على أرض الحرمين الشريفين، ويقومون بإلقاء المحاضرات وعقد المجالس، وتطرح مواضيع علمية مختلفة إما دروسًا تلقى، أو حلقات للنقاش، فتعم الفائدة، ويزداد نفعها من خلال تلك المناقشات التي قد يشارك فيها جمع من العلماء من أقطار مختلفة وآخرون من المقيمين أو المجاورين، وجدير بالذكر أن ظاهرة الجوار كانت نشطة إلى أبعد الحدود في هذه المدة سواء من الرجال أو النساء، وكان هؤلاء المجاورون يقومون بعقد مجالس علمية متعددة، ونذكر من بين المجاورات - على سبيل المثال - صاحبة الزاوية بسوق الليل في مكة المكرمة المعروفة بأم سليمان؛ إذ جاورت في مكة سنين عديدة، وحصل لها فيها سمعة طيبة وشهرة واسعة(١٣٠)، وكذلك

---

(١٢٧) منها على سبيل المثال : أسرة الطبري ، أسرة آل ظهيرة، آل نويري.

(١٢٨) السخاوي، ٤/١١٣، ٣٠٤.

(١٢٩) الفاسي، العقد ٣/١١٦- ١١٨ . السخاوي، الضوء ١/٨٦، ٢/٣٠٢- ٣٠٨، ٣/١٥١.

(١٣٠) الفاسي، العقد ٨/٣٤٣.

خديجة بنت أحمد الطبري المكية التي جاورت بالمدينة المنورة مرات عدة(١٣١)، وقد جاورت فاطمة بنت كمال الدين بن سيرين حوالي عشرين سنة في مكة المكرمة(١٣٢)، كذلك فإن وجود أربطة خاصة بالنساء أمر يشير إلى وجود نشاط علمي لهذه الأربطة في الوسط النسائي لا يمكن إغفاله، ومن أبرز هذه الأربطة رباط الأخلاطي، ورباط بنت التاج الموقوفين على النساء المجاورات القادمات إلى مكة المكرمة(١٣٣).

ومن الظروف التي أثرت سلبًا في تعليم المرأة عدم وجود أماكن خاصة مصرح بها لتعليم الفتاة كما هو الحال بالنسبة للصبيان، وهذا ربما يعود إلى التحفظ الذي أشار إليه بعض الفقهاء على تعليم الفتاة الأمر الذي أدى إلى تحجيم تعليمها إلى حد ملحوظ، وكذلك الظروف العائلية للمرأة، فلا قدرة لها مطلقة على الخروج من بلدها في طلب العلم كما هو الحال مع الرجال بالإضافة إلى مسؤوليتها في تربية الأولاد، والإشراف على أمور منزلها، إلا أن هذه الظروف لم تمنع بعضهنَّ من القيام برحلات متعددة إلى أقطار مختلفة من أجل طلب العلم والمعرفة.

---

(١٣١) السخاوي، ١١/ ٢٥.

(١٣٢) العيدروسي، محيي الدين عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله، تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ص٢٠٦، المكتبة العربية، بغداد، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م.

(١٣٣) الفاسي، شفاء الغرام ١/ ٣٣٤- ٣٣٥ .